القمر المنير

محمد صلى الله عليه وسلم

إهداء إلى كل من يريد أن يضاء بالقمر المنير

مقدمة

رحلة الأنبياء من أشراقة الهدى إلى ميلاد النور

:لم تكن شمس ذلك اليوم كغيرها، ولم يكن ليل مكة قبل بزوغ الفجر مجرد عتمة عابرة؛ بل كان الكون كله يحبس أنفاسه انتظاراً للّحظة التي ستغير وجه التاريخ إلى الأبد. في قلب الصحراء القاسية، حيث الصمت يلف الجبال الرواسي، وُلد الهدى، فكأنما انشق حجاب الغيب عن نورٍ لا ينطفئ.

"القمر المنير" ليس مجرد سردٍ لوقائع تاريخية أو تدوينٍ لأحداث مضت، بل هو إبحارٌ في سيرة الذات العظيمة التي أدبها ربي فأحسن تأديبها. هو تتبع لخطى النبي الكريم، من طفولته اليتيمة التي احتضنها الرقيب، إلى شبابه الذي عُرف فيه بالصدق والأمانة، وصولاً إلى تلك اللحظة المهيبة في غار حراء حين نزل الوحي ليربط الأرض بالسماء.

في صفحات هذا الكتاب، نسعى لاستحضار ملامح الرحمة المهداة؛ كيف كان يبتسم في وجه الصعاب، وكيف بنى أمةً من تشتت، وصنع دستوراً للأخلاق من صدق الكلمة ونبل الفعل. إنها قصة النور الذي بدد ظلمات الجهل، فكان كالقمر المنير الذي يضيء دروب الحائرين في ليل التيه، ويرشد الأرواح إلى مرساها بسلام.

نفتح هذه الصفحات لنقرأ السيرة بقلوبنا قبل عيوننا، لعلنا نقتبس من ذلك الضياء قبساً ينير لنا دروب الحياة. فاللهم اجعل عملي في هذا الكتاب صالحا واجعله خالصا لوجهك0

شرفت بكتابته،

منى حسن عبد الرسول

---

(١)

آدم عليه السلام (بداية الحكاية)

كيف بدأت قصتنا؟ ليس قصة أجدادنا القريبين، بل قصة الإنسان على هذه الأرض؟ سنعود بالزمن إلى ما قبل التاريخ، إلى لحظة لم يكن فيها بشر، ولا مدن، ولا صراعات.. لحظة صدور الأمر الإلهي: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خليفة)

"تخيلوا المشهد.. الملائكة تسأل باستفسار المحب: هل سيكون هذا المخلوق مفسداً؟ لكن الله عز وجل كان يعلم ما لا يعلمون. خلق الله آدم من طين، نفخ فيه من روحه، وعلمه ما لم تعلمه الملائكة.. علمه (الأسماء كلها).

هنا كانت أول معركة في التاريخ، ليست معركة بالسيوف، بل معركة (الكبر ضد الطاعة). سجدت الملائكة تكريماً، وأبى إبليس. لماذا؟ لأنه نظر للمعدن (الطين) ونسي تشريف الخالق. ومن هنا بدأت رحلة العداء التي لا تزال مستمرة بيننا وبين الشيطان."

"عاش آدم وحواء في الجنة، في رغد لا ينفد، لكن كان هناك اختبار واحد: شجرة واحدة فقط!

لم يأتِ الشيطان لآدم كعدو، بل جاء كـ (ناصح أمين) يهمس له بالخلد والملك. سقط آدم في الفخ، أكل من الشجرة.. فهل كانت النهاية؟

لا! هنا نتعلم أعظم درس في حياة البشر: (الاعتراف بالخطأ). لم يتكبر آدم كما فعل إبليس، بل قال بكسر ويقين: 'ربنا ظلمنا أنفسنا'.. فجاءه القبول والاجتباء.

"أيها الأصدقاء، قصة آدم ليست مجرد قصة قديمة، إنها قصتنا جميعاً. نحن نخطئ كل يوم، لكن الفرق بيننا وبين إبليس هو 'التوبة'. نزل آدم إلى الأرض ليعمرها، لتبدأ من نسله سلسلة من النور.. سلسلة الأنبياء الذين سيقودوننا للعودة الى وطننا الأصلي الجنة0

---

(٢):

نوح عليه السلام (شيخ المرسلين وطوفان النجاة)

"مرت قرون على وفاة آدم، ونسي الناس عهد التوحيد. كيف تسلل الشرك للبشر؟ بدأ الأمر بـ 'حب الصالحين'، فصنعوا لهم تماثيل للذكرى، ثم مع الوقت.. سجدوا لها! هنا بدأت رحلة أول رسول إلى الأرض: نوح عليه السلام."

"تخيلوا شخصاً يدعو قومه ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، لمدة 950 عاماً! ما يقرب من ألف سنة من السخرية والاستهزاء. كان القوم يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوه، ويغطون وجوههم بملابسهم حتى لا يروه. لكن نوحاً لم ييأس، كان يحمل أمانة النجاة للعالم."

"جاء الأمر الإلهي: (اصْنَعِ الْفُلْكَ). وأين؟ في وسط الصحراء! تخيلوا سخرية الناس وهو يبني سفينة ضخمة بعيدة عن أي بحر. لكن نوحاً كان يرى بعين اليقين ما لا يراه الغافلون.

وعندما 'فار التنور' وانفجرت الأرض عيوناً والتقى الماء بالماء، كانت السفينة هي الملاذ الوحيد. ركب المؤمنون، ومعهم من كل زوجين اثنين، وغرق الكبر والظلم تحت الأمواج المتلاطمة."

"قصة نوح تعلمنا أن 'الحق ليس بكثرة الأتباع'. ولو وقف العالم كله ضدك وأنت على حق، فأنت المنتصر في النهاية. السفينة كانت قارب نجاة للأجساد، والتوحيد كان قارب نجاة للأرواح."

"انتهى الطوفان، وبدأت الحياة من جديد مع ذرية نوح.. لكن، هل استمر الناس على الهدى؟ أم عاد الكبر ليطل برأسه من جديد؟

(٣)

هود عليه السلام (الريح العقيم وغرور القوة)

"هل سمعتم عن مدينة 'إرم'؟ تلك التي لم يُخلق مثلها في البلاد! قوم أعطاهم الله أجساداً كالجبال، وقوةً لم يسبق لها مثيل.. لكنهم قالوا بجنون العظمة: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟).

"عاش قوم عاد في الأحقاف (بين اليمن وعمان)، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهة. كانوا يعتقدون أن عضلاتهم المفتولة وقلاعهم الحصينة ستحميهم من كل شيء. جاءهم 'هود' عليه السلام بكلمة واحدة: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

لكن الرد كان صادماً: 'إننا نراك في سفاهة!'. سخروا من تحذيراته، وظنوا أن السحب التي تجمعت في السماء هي سحب مطر وخير، ولم يعلموا أنها تحمل نهايتهم."

"لم يرسل الله عليهم جيوشاً، بل أرسل 'الريح'. نعم، مجرد هواء! لكنها كانت ريحاً 'صرصراً عاتية'.. ظلت تضربهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً.

تخيلوا هؤلاء العمالقة وهم يتطايرون في الهواء كأعجاز نخل خاوية! تحطمت حصونهم، وانتهت قوتهم التي افتخروا بها، ولم ينجُ إلا هود والذين آمنوا معه."

لا تغتر بقوتك مهما بلغت. العلم، المال، المنصب.. كلها نعم من الله، فإذا استخدمتها في الكبر، فقدت قيمتها. القوة الحقيقية هي التي تحميك يوم لا ينفع مال ولا بنون."

(4)

صالح عليه السلام (الناقة والصخرة الصماء)

"بعد هلاك عاد، ظهرت قبيلة 'ثمود' في منطقة الحِجر (مدائن صالح). تعلموا من التاريخ؟ لا، بل زادوا عليه! كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنة وفارهة، وظنوا أن الحجر سيحميهم من قدر الله.

"دعاهم صالح للتوحيد، لكنهم سخروا منه وقالوا: 'لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقةً حية، ضخمة، وحامل!'.. تحدٍ تعجيزي، لكن صالحاً لجأ إلى خالق المستحيلات.

دعا ربه، فانشقت الصخرة، وخرجت منها ناقة الله. معجزة حية تمشي بينهم، تشرب يوماً وتسقيهم لبناً يوماً. كان الشرط واحداً: (ذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ)."

"لكن الحقد أعماهم. تسلل تسعة رهط من المفسدين وعقروا الناقة. هنا انتهت المهلة.. قال لهم صالح: (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ).

وفي فجر اليوم الرابع، لم تأتِ ريح كقوم عاد، بل جاءت "الصيحة". صوت مرعب زلزل القلوب في الصدور، فتقطعت أمعاؤهم وماتوا جاثمين في بيوتهم التي ظنوا أنها حصينة."

احذر من الاستهانة بآيات الله. المعجزات كانت بين أيديهم (الناقة واللبن)، لكنهم اختاروا العناد. الله يعطينا فرصاً كثيرة، والذكي هو من يغتنمها قبل فوات الأوان."

(٥)

نبي الله (إبراهيم عليه السلام)

تخيلوا شاباً وحيداً في مواجهة قوم يعبدون الكواكب والأصنام.

"لم يبدأ إبراهيم بالهجوم، بل بدأ بالمنطق. سأل والده ببرّ: 'لماذا تعبد ما لا يسمع ولا يبصر؟'. ثم نظر إلى السماء، إلى الكوكب والقمر والشمس.. فلما غابت جميعاً، قال بذكاء: (لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ). الخالق لا يغيب!

وعندما جاء العيد وخرج القوم، دخل إبراهيم معبد الأصنام وحطمها جميعاً بقدومٍ (فأس)، إلا كبيرهم! لماذا؟ ليريهم عجزهم. وعندما سألوه: 'أأنت فعلت هذا؟'، أجاب بسخرية ذكية: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ).

"لم يجدوا رداً إلا العنف.. صاحوا: (حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ). جمعوا أعظم حطب، وأوقدوا ناراً لم يُرَ مثلها، ثم قذفوا إبراهيم بالمنجنيق في قلب الجحيم.

في تلك اللحظة، جاءه جبريل يسأله: 'ألك حاجة؟'، فقال إبراهيم بيقين يهز الجبال: 'أما إليك فلا، وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل'. فصدر الأمر الإلهي للجماد (للنار): (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ). خرج منها يمشي ولم تمسه إلا بالسكينة!"

'اليقين المطلق'. عندما تكون مع الله، تتبدل قوانين الكون لأجلك. النار التي تحرق أصبحت برداً، والوحدة أصبحت قوة. تذكر دائماً: 'حسبي الله ونعم الوكيل' هي مفتاح المستحيلات.

"نجا إبراهيم، وبدأت رحلته الطويلة.. رحلة البناء والهجرة.

: "من بابل إلى فلسطين، ثم إلى وادٍ غير ذي زرع.. مكة. ترك إبراهيم زوجته هاجر وطفلهما الرضيع إسماعيل هناك. سألته هاجر بلهفة: 'الله أمرك بهذا؟' قال: 'نعم'. قالت بيقين: 'إذن لا يضيعنا'."

"بكت هاجر، ركضت بين الصفا والمروة سبعاً بحثاً عن قطرة ماء، وفجأة.. ضرب الرضيع الأرض بقدمه فانفجرت زمزم.

كبر إسماعيل، وتعلق به قلب أبيه، فجاء الاختبار الأعظم في الرؤيا: (إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ). لم يتردد الأب، ولم يهرب الابن، بل قال: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ). وعندما وضع السكين على رقبته، فداه الله بذبح عظيم (الكبش)؛ جزاءً لهذا التسليم المطلق."

"اجتمع الأب والابن مرة أخرى، ليس للذبح، بل للبناء. رفعا قواعد البيت الحرام، وصار إبراهيم يؤذن في الناس بالحج. ومن ذلك الحين، وأفئدة الناس تهوي إلى هذا المكان الطاهر."

'من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه'. تركوا الراحة في الصحراء، فأعطاهم الله بئر زمزم وبيت الحج وذكرى خالدة إلى يوم الدين. "بعد إبراهيم، انتشر النور في ذريته.

(7)

يوسف عليه السلام (من قاع البئر إلى عرش مصر)

"هل يمكن للظلم أن يكون طريقاً للمجد؟ بدأ بحلم جميل: أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون لطفل صغير.. لكن الطريق لتحقيق هذا الحلم مرّ عبر بئر مظلم، وسجن طويل.

"بدأ الأمر بـ 'حسد'. ألقاه إخوته في البئر وهو طفل وحيد، ثم بيع في سوق العبيد بدراهم معدودة. وفي قصر عزيز مصر، واجه اختباراً أصعب من البئر؛ 'فتنة امرأة العزيز'. لكن يوسف الذي كان يراقب الله في خلوته قال: (مَعَاذَ اللَّهِ).

اختار السجن على المعصية، فلبث فيه بضع سنين، لكن الله لم ينسه. كانت موهبته في 'تفسير الرؤى' هي مفتاحه للخروج."

"رأى ملك مصر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف. فسرها يوسف بخطة اقتصادية عبقرية أنقذت مصر من مجاعة محققة.

وفي لحظة النصر، عندما جاءه إخوته أذلاء يبحثون عن الطعام، لم ينتقم، بل قال كلمته الخالدة: (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ). وتحقق الحلم القديم، واجتمع شمل الأسرة وسجدوا له تحية وشكراً لله.

'إن مع العسر يسراً'. البئر كان وسيلة للوصول للقصر، والسجن كان وسيلة للوصول للكرسي. إذا أُغلقت في وجهك الأبواب، فاعلم أن الله يدبر لك أمراً أعظم مما تتخيل."

(8)

موسى عليه السلام (من اليمّ إلى القصر.. ومن العصا إلى الحية)

"تخيلوا طفلاً رضيعاً يُلقى في صندوق خشبي وسط نهر النيل الهائج، بأمر من أمه! لماذا؟ لأن فرعون قرر ذبح كل أطفال بني إسرائيل، النبي الذي ترعرع في بيت عدوه، ليكون هو نهايته.

"ألقته أمه في اليمّ، والتقطه آل فرعون. وبدلاً من قتله، وقع حبه في قلب زوجة فرعون 'آسية'. كبر موسى في القصر، لكن قلبه ظل مع قومه المستضعفين. وبعد حادثة قتل بالخطأ، هرب إلى 'مدين' وعاش هناك عشر سنين، حتى ناداه الله من جانب الطور: (يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ).

أُمر بالعودة لمواجهة فرعون، ومعه معجزتان: يد تخرج بيضاء من غير سوء، وعصا تنقلب حية تسعى. وقف موسى الضعيف أمام فرعون المدجج بالسلاح وقال له: (أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)."

"وصل الصراع لذروته عندما خرج موسى بقومه ليلاً، ولحقهم فرعون بجيشه. البحر أمامهم والعدو خلفهم، فصرخ القوم: 'إنا لمدركون!'. لكن موسى أجابهم بيقين: (كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ).

ضرب البحر بعصاه، فانشق نصفين، وصار كالجبال العظيمة. عبر موسى، وعندما حاول فرعون العبور، أطبق الله عليه الماء. وفي لحظة الغرق، عرف فرعون أن القوة لله وحده، ولكن بعد فوات الأوان

'الثقة المطلقة بوعد الله'. عندما تظن أن الأبواب قد أُغلقت تماماً، تذكر أن الذي شق البحر لموسى، قادر على أن يفتح لك ألف باب وباب. لا تخف من القوي، فالله أقوى."

"مات الطاغية ونجا المستضعفون، لكن الرحلة لم تنتهِ في سيناء سنعرف قصة ملوك بني إسرائيل، النبي الذي سخر الله له الريح والجن، والنبي الذي قتل الجالوت بمقلاعه.

(9)

داود وسليمان (الملك، المزامير، وتسخير الريح)

"هل يمكن للملك والجاه أن يزيدا الإنسان تواضعاً؟ قصة أب وابنه، لم يكونا أنبياء فحسب، بل كانا ملوكاً حكما العالم بالعدل. نبي الله داود الذي لان له الحديد، وابنه سليمان الذي فهم لغة الطير."

"بدأ داود كجندي شجاع قتل الطاغية 'جالوت' بحجر صغير، فأعطاه الله الملك. كان داود يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإذا سبّح الله اهتزت الجبال وسبحت معه الطيور لصوت مزاميره الرائع. وعلمه الله صنعة الدروع: (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)، فكان ملكاً يأكل من عمل يده."

"ثم ورثه سليمان، ودعا ربه: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي). فاستجاب الله له. سخر له الريح تجري بأمره، وسخر له الجن يبنون له المحاريب، وعلمه لغة الحيوانات.

تخيلوا ملكاً يبتسم لقول نملة، ويتفقد طيراً (الهدهد)، ويقود جيشاً لم يره البشر من قبل. ومع كل هذه العظمة، كان سليمان يسجد لله شاكراً ويقول: (هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ). بل إنه دعا ملكة سبأ (بلقيس) للإسلام، فأسلمت معه لله رب العالمين."

داود وسليمان كانا يملكان الدنيا بين أيديهما، لكنها لم تدخل قلوبهما. القوة الحقيقية هي أن تملك العالم وتظل عبداً مخلصاً لله."

"انتهى عصر الملوك العظام، ومرت السنون، لتقترب من لحظة الميلاد الأعظم"

10

عيسى عليه السلام (روح الله والبشرى القادمة)

"منذ فجر التاريخ، والأنبياء يبشرون برحمة الله. لكن قصتنا عن معجزة لم تتكرر؛ طفلٌ وُلد بكلمة من الله دون أب، ليكون آية للعالمين.. 'روح الله' وكلمته.. نبي الله عيسى ابن مريم."

"بدأت القصة بالسيدة الطاهرة مريم، التي جاءها جبريل يبشرها بغلام زكيّ. وعندما تعجب القوم، نطق الطفل وهو في المهد: (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا).

كبر عيسى وجاء بالبينات؛ كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. لم يكن ساحراً، بل كان رحمةً مهداة لقومٍ غرقوا في الماديات، ليذكرهم بأن القوة لله وحده."

"لكن أهم مهمة لعيسى عليه السلام كانت 'التمهيد'. وقف في بني إسرائيل قائلاً: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ).

حاولوا قتله وصلبه، لكن الله رفعه إليه، ليحفظه ليومٍ يعود فيه. وبقيت الأرض بعده تنتظر.. تنتظر ذلك 'الأحمد' الذي سيمحو ظلام الجاهلية ويملأ الأرض نوراً."

فالحياة ليست مادة فقط، بل هي إيمان بالخالق الذي يغير السنن الكونية لأجل عباده الصالحين. كن مع الله، وسيجعل من ضعفك قوة ومن مستحيلك واقعاً."

"انتهت قصص الأنبياء السابقين، ووصلنا الآن إلى اللحظة التي انتظرتها البشرية آلاف السنين. ستبدأ رحلتنا الكبرى.. رحلة اليتيم الذي هز عروش القياصرة، ونثر الرحمة في كل بيت.

محمد ﷺ (ميلاد اليتيم الذي آوى العالم)

"بعد قرون من الصمت، وبعد أن أظلمت الأرض بعبادة الأصنام والظلم، كانت مكة على موعد مع حدث سيغير وجه التاريخ للأبد. ليس ولادة ملك، ولا قائد عسكري، بل ولادة طفل يتيم.. سيحمل نور الله إلى القلوب

"قبل مولده بأشهر قليلة، حاول 'أبرهة الحبشي' هدم الكعبة بجيش عظيم يتقدمه فيل ضخم. لكن الله حمى بيته بطير أبابيل، ليبقى البيت طاهراً لاستقبال الرسالة.

وفي يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول، وُلد محمد. مات والده 'عبد الله' وهو في بطن أمه، فجاء الدنيا يتيماً. رأت أمه 'آمنة' نوراً خرج منها أضاء قصور الشام.. وكأن الكون كله يرحب بقدوم الرحمة المهداة."

"لم يتربَّ في القصور، بل أُرسل إلى البادية عند 'حليمة السعدية'. هناك، حلت البركة في بيت حليمة بسببه؛ درّت الأغنام لبناً، واخضرت الأرض.

وفي سن الرابعة، حدثت واقعة 'شق الصدر' العجيبة؛ حيث جاءه ملكان فغسلا قلبه بماء زمزم، ونزعا منه حظ الشيطان. عاد إلى مكة بقلب أبيض طاهر، ليفقد أمه 'آمنة' وهو في السادسة، ثم جده 'عبد المطلب' وهو في الثامنة.. ليتولى الله وحده تربيته: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ)."

'اليتم لا يمنع العظمة'. الله قد يأخذ منك شيئاً غالياً (كالأبوين) ليصنعك على عينه، وليعلمك أن تعتمد عليه وحده. لا تحزن على ما فقدت، فربما كان فقدك هو بداية تمكينك.

"كبر محمد، وأصبح يُعرف في مكة بلقب لم ينله غيره: 'الصادق الأمين'. فكيف بدأت رحلته في التجارة؟ وكيف التقى بالسيدة خديجة0

محمد ﷺ (خديجة، والوحي، واقرأ)

"كبر محمد ﷺ، ولم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمرًا، بل كان يترفع عن أخلاق الجاهلية. عُرف بـ 'الأمين'، ومن هنا بدأت حكايته مع سيدة نساء مكة، السيدة خديجة بنت خويلد."

"أعجبت خديجة بأمانته في تجارتها، فخطبته لنفسها، وكان زواجاً ملؤه السكن والمودة. ولكن، كان في قلب محمد ﷺ تساؤلات كبرى: من خلق هذا الكون؟ ولماذا يعبد الناس الحجر؟

بدأ يبتعد عن ضجيج مكة، ويصعد إلى غار حراء في أعلى جبل النور. هناك، في العزلة والهدوء، كان يتعبد الليالي ذوات العدد، يبحث عن الحقيقة في صمت الصحراء."

"وفي ليلة من ليالي رمضان، وهو في الأربعين من عمره، حدث الانفجار النوري! دخل عليه الملك جبريل وضمه ضمة شديدة وقال له: 'اقرأ'. أجاب بصدق: 'ما أنا بقارئ'. كررها ثلاثاً، ثم نزلت أولى كلمات السماء: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

عاد يرتجف إلى خديجة يصيح: 'زملوني زملوني'. فكانت هي الحضن الدافئ الذي طمأنه بكلمات خلدها التاريخ: 'كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل...'. لكي تسمع صوت الحقيقة، عليك أحياناً أن تبتعد عن الضجيج. ومحمد ﷺ علمنا أن الزوجة الصالحة هي السند الأول في الحياة.

"بدأت المهمة، وتحول 'الأمين' إلى 'نبي'. فكيف بدأ دعوته في مكة؟ ومن هم الأوائل الذين صدقوه

الدعوة (الصدع بالحق وصبر الجبال)

"بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية، جاء الأمر الإلهي الحاسم: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ). صعد النبي ﷺ على جبل الصفا، ونادى في قريش.. ومن هنا تحولت مكة من مدينة هادئة إلى ساحة للصراع بين النور والظلام."

"نادى النبي ﷺ: 'يا بني فلان.. لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟'. قالوا: 'نعم، ما جربنا عليك كذباً'. فقال: 'فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد'.

هنا انقطع حبل المودة؛ صرخ عمه أبو لهب: 'تباً لك ألهذا جمعتنا؟'. وبدأت رحلة التعذيب.. بلال تحت الصخرة يصرخ: 'أحدٌ أحد'، وآل ياسر يُقتلون صبراً، والنبي ﷺ يمر عليهم ويهمس بيقين: 'صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة'."

"عندما فشل التعذيب، لجأوا للإغراء. قالوا له: 'إن أردت مالاً جمعناه لك، وإن أردت ملكاً ملكناك علينا'. فكان رده الخالد الذي زلزل كبرياءهم: 'والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه.. ما تركته'. فصاحب الحق لا يساوم على إيمانه مقابل المال أو الجاه. الصدق مع الله يمنحك قوةً تجعل الصخر يلين تحت قدميك."

"اشتد الحصار، وضاق الحال، فكان لا بد من مخرج.. الهجرة إلى أرض الملك العادل الذي لا يُظلم عنده أحد، وقصة 'عام الحزن'.

عام الحزن والطائف (سحابة الصبر ورحلة الأمل)

"هل مررتم يوماً بلحظة شعرتم فيها أن الأبواب سُدّت من كل جانب؟ نبينا ﷺ عاش تلك اللحظة. في عام واحد، فقد السند الداخلي (السيدة خديجة) والسند الخارجي (عمه أبو طالب). سمّاه المؤرخون 'عام الحزن'. لكن هل استسلم النبي ﷺ؟ أبداً، بل خرج يبحث عن النور في مكان "ذهب النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه، يرجو منهم نصرة الدين. لكن الرد كان أقسى من حجارة مكة؛ سخروا منه، وسلّطوا عليه صبيانهم يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان.

خرج مهموماً، وجلس تحت ظل شجرة يدعو بأعظم دعاء في تاريخ البشرية: 'اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس..'. وفي تلك اللحظة، جاءه ملك الجبال يستأذنه في إطباق الجبلين على أهل الطائف، فماذا قال نبي الرحمة؟ قال: 'بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده'."

"عندما ضاقت الأرض، فُتحت له أبواب السماء. في رحلة الإسراء والمعراج، أُسري به من مكة إلى القدس، ثم عُرج به إلى السماوات العلى، ليرى من آيات ربه الكبرى، ويُفرض عليه الركن العظيم: الصلاة. كانت الرحلة رسالة من الله: 'يا محمد، إن جفاك أهل الأرض، فأنت عند أهل السماء مكرّم'."

النبي ﷺ لم يدعُ على من آذاه، بل دعا لهم بالهداية. تذكر دائماً: إذا ضاقت بك السبل، فلك في السماء ربٌ لا يغلق بابه."

"بعد هذا التكريم السماوي، بدأ فجر جديد يلوح في الأفق.. فجر يثرب. فكيف كانت البيعة؟ وكيف بدأت قصة الهجرة الكبرى0

الهجرة إلى المدينة (المعجزة في الغار)

"مكة لم تعد آمنة.. تآمرت قريش على قتل النبي ﷺ في فراشه. لكن الله كان قد أذن بالفجر الجديد.

"خرج النبي ﷺ من بيته والسيوف تحيط به، فذَرّ التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: (فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ). ترك علياً في فراشه ليؤدي الأمانات، واختار أبا بكر ليكون رفيق الدرب.

لم تكن الهجرة عشوائية، بل كانت قمة في التخطيط؛ سلكا طريقاً وعراً، واختبآ في 'غار ثور' ثلاثة أيام. وعندما وصلت قريش إلى باب الغار، خاف أبو بكر وقال: 'لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا'. فأجابه النبي ﷺ بهدوء يهز الكون: 'يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟'.

"نجا النبي ﷺ من سراقة بن مالك الذي طارده، ووصل إلى قباء، ثم دخل المدينة. لم يكن استقبالاً عادياً؛ كان الجميع يرجو أن ينزل النبي ﷺ في بيته.

وقف النبي ﷺ وقال عن ناقته 'القصواء': (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ). بركت الناقة أمام بيت أبي أيوب الأنصاري، وعلت أصوات الفرح: 'طلع البدر علينا'. من هنا، لم تعد يثرب مدينة عادية، بل أصبحت 'المدينة المنورة' وعاصمة الإسلام الأولى."

خطط النبي ﷺ، استعان بخبير للطريق، واختبأ في الغار، ثم توكل على الله. النجاح يحتاج إلى عقل يخطط، وقلب يثق بالخالق."

"وصل النبي ﷺ بسلام، وبدأت المهمة الأصعب: بناء المجتمع الجديد. كيف آخى بين المهاجرين والأنصار؟ وكيف بني المسجد النبوي؟

بناء المجتمع (المسجد، المؤاخاة، والوثيقة)

"استقر النبي ﷺ في المدينة، لكنه لم يأتِ ليرتاح، بل ليبني! لم يكن بناءً من الحجر فقط، بل بناءً من البشر. المدينة كانت تضم مهاجرين فقراء، وأنصاراً كرماء، وقبائل يهودية.. فكيف صهر النبي ﷺ كل هؤلاء في مجتمع واحد؟ الآن نعرف سر نجاح (دولة المدينة)."

"كان أول عمل قام به هو بناء المسجد. لم يكن المسجد للصلاة فقط، بل كان برلماناً للشورى، ومدرسةً للعلم، ومأوىً للفقراء. شارك النبي ﷺ بنفسه في حمل الحجارة وهو يرتجز مع أصحابه، ليعلمنا أن القائد هو أول من يعمل، وآخر من يرتاح."

"ثم جاءت الخطوة العبقرية: (المؤاخاة). جعل لكل مهاجرٍ أخاً من الأنصار. رأينا صوراً من الإيثار لم يعرفها التاريخ؛ الأنصار يعرضون نصف أموالهم وبيوتهم على إخوانهم المهاجرين، والمهاجرون بعزة نفس يقولون: 'بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق'.

ولكي يضمن الحقوق للجميع، كتب النبي ﷺ 'وثيقة المدينة'، وهي أول دستور مدني في التاريخ. ضمنت لليهود دينهم وأموالهم، وجعلت الجميع يداً واحدة للدفاع عن المدينة. لقد وضع النبي ﷺ قواعد 'المواطنة' قبل أن يعرفها العالم بقرون. لا تقوم دولة ولا ينجح مجتمع إلا بالحب والتكافل واحترام العهود. النبي ﷺ علمنا أن الاختلاف في الدين أو القبيلة لا يمنع العيش بسلام وتحت قانون واحد."

"أصبحت المدينة قوية، لكن قريشاً لم تتركهم وشأنهم. بدأ التحرش بالمسلمين، واقتربت ساعة المواجهة الكبرى.

بدر.. حين تآمر الرمل مع السماء

لم تكن الصحراء في ذلك اليوم مجرد كثبان صامتة، كانت ممرًا للقدر. خرج النبي ﷺ في ثلاثمائة وبضعة رجال، لم يخرجوا لقرع الطبول، بل لاسترداد حقٍ سُلب في مكة. وفي المقابل، كانت قريش تجر خيلاءها بكبرياء ألف مقاتل، يظنون أن كثرتهم ستحجب شمس الحق.

عند "آبار بدر"، وقف المصطفى ﷺ ينظر إلى القوم؛ هنا القلة المؤمنة، وهناك الطغيان المدجج بالسلاح. دخل العريش، وبسط يديه للسماء في ضراوة حُب وخوف على الأمة، يهتف: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد في الأرض". سقط رداؤه عن منكبيه من شدة الالتجاء، حتى طمأنه الصدّيق بلمسة حانية: "يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك".

بدأت المعركة بلقاء السيوف، لكن النصر لم يأتِ من الحديد وحده. كانت السماء قد فتحت أبوابها، والمؤمنون يقاتلون بأبدانهم، والملائكة تسدد خُطاهم. لم تكن الموقعة مجرد انتصار عسكري، بل كانت زلزالاً هزّ أركان الجزيرة العربية؛ فقد سقط رُؤوس الكفر في بئر "القليب"، وارتفع لواء الإسلام عالياً.

في بدر، تعلم العالم أن الأرقام تكذب أمام "اليقين"، وأن فئة قليلة قد تغلب جيشاً جراراً إذا كان الله هو القائد والمبتغى. لم يكن يوماً للدم، بل كان "يوم الفرقان"؛ اليوم الذي فصَل فيه الله بين عهدين.. عهد عبادة الحجر، وعهد حرية البشر.

أُحد.. حين غلب الطمعُ الطاعة

بعد عام من انكسار كبريائها، عادت قريش بجيشٍ يملأ الأفق، ونزلوا عند جبل "أُحد". النبي ﷺ، القائد الذكي، وضع خمسين رامياً على ظهر جبل صغير، وأعطاهم أمراً صارماً لا يقبل التأويل: "لا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير".

بدأت المعركة، مالت الكفة للمسلمين، وهرب المشركون تاركين خلفهم الغنائم. وهنا، حدث الانكسار النفسي قبل العسكري؛ ظن الرماة أن الحرب انتهت، أغراهم بريق الذهب، فتركوا الجبل ونزلوا لجمع الحطام.. نسوا أن النصر معلّق بطاعة الأمر لا بكثرة الغنم.

لم يضع خالد بن الوليد (قبل إسلامه) الفرصة؛ التفّ حول الجبل، وانقضّ على المسلمين من خلفهم. تحول النصر إلى جراح، واختلطت الصفوف، حتى شُجّ وجه النبي ﷺ وكُسرت رباعيته، وأُشيع خبر موته. لكن المؤمنين الصادقين التفوا حوله كالسوار، يفتدونه بصدورهم من السهام.

أُحد لم تكن هزيمة، بل كانت "مدرسة الجراح". علمتنا أن القائد العظيم قد يُبتلى ليظهر صبر أصحابه، وأن مخالفة واحدة لأمر نبوي قد تُغير مجرى التاريخ. سقط حمزة "سيد الشهداء"، وبكت المدينة، لكن شجرة الإسلام سُقيت بدمٍ طاهر، لتزداد جذورها عمقاً في الأرض.

الخندق.. حين تحالفت الأحزاب وتآمر الصخر

لم تكن "غزوة الخندق" معركة سيوف فحسب، بل كانت معركة أعصاب وحصار. اجتمعت قبائل العرب وقريش في عشرة آلاف مقاتل، في تحالفٍ أراد استئصال شأفة الإسلام من جذورها. نزلوا حول المدينة كالسوار حول المعصم، والمسلمون في الداخل يواجهون الجوع والبرد والخوف، حتى وصف القرآن حالهم: (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ).

هنا، برزت عبقرية المشورة؛ أشار "سلمان الفارسي" بحفر خندقٍ لم تعرفه العرب من قبل. وقف النبي ﷺ يحمل المعول مع أصحابه، يضرب الصخر فتنقدح منه الشرارات، وفي عز الضيق والظلام، كان يبشرهم بفتح قصور كسرى وقيصر. كان المنافقون يتهامسون: "يعدنا بكنوز كسرى وأحدنا لا يأمن على نفسه دخول الخلاء!"، لكن المؤمنين كانوا يرون في ضربات معول النبي ﷺ فجر المستقبل.

لم ينتهِ الحصار بصدام الجيوش، بل بجندٍ من جنود الله الخفية؛ ريحٌ صرصرٌ قلبت قدور الأحزاب، واقتلعت خيامهم، وقذفت في قلوبهم الرعب. رحلوا في ليلةٍ ليلاء، ووقف المصطفى ﷺ ينظر إلى أثرهم ويقول كلمته الخالدة: "الآن نغزوهم ولا يغزونا".

صلح الحديبية.. نصرٌ في ثوب هزيمة

بعد سنوات من الشوق، خرج النبي ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه، لا يحملون

سلاحاً إلا السيوف في غمدها، قاصدين الكعبة معتمرين. لكن قريشاً، بكبريائها الجريح، منعتهم عند "الحديبية".

جلس النبي ﷺ يفاوض "سهيل بن عمرو". تنازل النبي عن كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" لتكون "باسمك اللهم"، وتنازل عن وصفه بـ "رسول الله" ليكتب "محمد بن عبد الله". بل وقبل شرطاً قاسياً: أن يُردّ من جاء مسلماً إلى قريش، ولا يُردّ من ارتدّ عن الإسلام إلى المدينة!

ضجّت صدور الصحابة بالحمية، حتى قال عمر بن الخطاب بمرارة المحب: "ألسنا على الحق وهم على الباطل؟". لكن النبي ﷺ كان يرى ما لا يروه؛ كان يرى "الفتح المبين" في صلحٍ يضع الحرب أوزارها، ويتيح للإسلام أن يدخل كل بيت بالكلمة لا بالسيف.

وعند العودة، نزلت سورة الفتح لتؤكد أن هذا التراجع الظاهري هو أعظم انتصار سياسي في تاريخ الإسلام. لقد اعترفت قريش بالدولة الجديدة، وانفسح المجال لانتشار الدعوة في آفاق الأرض.

بين الخندق والحديبية، تعلمنا أن النصر تارةً يأتي بالصمود خلف الحفر، وتارةً يأتي بالمرونة خلف طاولة المفاوضات. القوة ليست دائماً في حد السيف، بل في الحكمة التي تعرف متى تضرب ومتى تصافح.

فتح مكة.. حين عاد اليتيمُ ملكاً والطريدُ فاتحاً

في العام الثامن للهجرة، نقضت قريش عهدها، فكان القرار المحتوم: العودة إلى الديار. زحف عشرة آلاف من جند الله نحو مكة، ليس لحرقها، بل لإضاءتها. دخل النبي ﷺ مكة من أعاليها، لكنه لم يدخل على صهوة كبرياء الفاتحين؛ بل دخل مطأطئ الرأس على ناقته، تواضعاً لله، حتى كادت لحيته الشريفة تلمس رحل ناقته.

خيم الصمت على مكة، وارتجفت قلوب قريش التي أذاقت المسلمين أصناف العذاب. وقفوا أمام الكعبة ينتظرون حكم "الطريد" الذي عاد اليوم قوياً. نظر إليهم النبي ﷺ وقال بفيضٍ من النبل: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟". أجابوا بصوت منكسر: "خيراً، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم".

هنا، وفي أعظم مشهدٍ للعفو في تاريخ البشرية، نطق المصطفى ﷺ: "اذهبوا فأنتم الطلقاء". لم ينتقم لسمية التي قُتلت، ولا لحمزة الذي مُثل بجسده، ولا لبيته الذي صودر. كانت الرسالة واضحة: الإسلام لم يأتِ لقطع الرؤوس، بل لفتح القلوب. صعد بلال (الذي كان يُعذب بالأمس) فوق الكعبة ليؤذن، فاهتزت أركان الوثنية وسقطت الأصنام الثلاثمائة حول البيت الحرام، وهي تتهاوى أمام صرخة: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ).

حجة الوداع.. كلماتُ الوداع الأخير

بعد أن استقر الدين وانتشر النور، خرج النبي ﷺ في العام العاشر للهجرة في مئة ألف من أصحابه. وقف على جبل الرحمة في عرفات، تحت شمس مكة اللاهبة، ليلقي "دستور الإنسانية الخالد". كانت كلماته تسيل رقّة وهيبة: "أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام..".

أوصى بالنساء خيراً، وألغى فوارق الطبقات والألوان: "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى". كان يسأل الجموع والحزن يغلف صوته: "ألا هل بلغت؟"، فيجيب مئة ألف حنجرة بصوتٍ واحد: "اللهم نعم". فنظر إلى السماء وأشهد ربه على تمام الأمانة. وفي ذلك الموقف المهيب، نزل الوحي لآخر مرة بآية الختام: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي).

الرفيق الأعلى.. حين توقفت أنفاسُ الوحي

عاد النبي ﷺ إلى المدينة، وبدأ الوجع ينسلّ إلى جسده الشريف. في حجرة السيدة عائشة، كان الصداع يشتد، لكن همّه كان على أمته. خرج إلى المسجد بآخر قواه، عاصباً رأسه، ليودع أصحابه بكلماتٍ كالدرر.

وفي لحظاته الأخيرة، خُيّر بين البقاء في الدنيا وبين لقاء ربه، فكان اختياره الأبدي: "بل الرفيق الأعلى.. بل الرفيق الأعلى". سكت الصوت الذي كان ينقل كلمات السماء، وفاضت الروح الطاهرة إلى بارئها. أظلمت المدينة، وتاهت العقول، حتى وقف الصديق ثابت الجنان ليقول كلمته التي أعادت الأمة إلى رشدها: "من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت".

انتهت حياة محمد الإنسان، لكن "محمد الرسالة" لم يمت. رحل اليتيم الذي لم يترك درهماً ولا ديناراً، لكنه ترك أمةً تملأ الأرض عدلاً ورحمة. ترك مصحفاً يُتلى، وسيرةً تُحكى، وطريقاً لمن أراد الوصول إلى جنات الخلد.

محمد ﷺ"كان خلقه القرآن"

لم يكن النبي ﷺ مجرد واعظٍ يلقي الكلمات، بل كان تجسيداً للفضيلة. سُئلت السيدة عائشة عن خلقه، فأوجزت الدنيا في جملة: "كان خلقه القرآن". إذا أمر بالصدق، كان "الصادق"، وإذا نهى عن الغدر، كان "الأمين". لم يضرب بيده امرأة ولا خادماً قط، وكان في بيته "في مهنة أهله"؛ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته. كان نبياً يملك مفاتيح الأرض، لكنه ينام على حصيرٍ يترك أثراً في جنبه الشريف، ويقول بتواضع العظماء: "ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها0تجسد الوحي في بشر

لم يكن القرآن في صدر محمد ﷺ مجرد آيات تُتلى، بل كان دماً يجري في عروقه، ونبضاً يوجه حركاته وسكناته. إذا قرأ الناس (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، كان هو أوفى الناس لمرضعته وأبرهم بذكرى أبويه. وإذا قرأوا (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)، رأوا مشيته التي تقطر سكينة، فلم يكن فظاً ولا غليظاً ولا صخّاباً في الأسواق.

١. الانضباط بحدود الله

كان ﷺ يغضب، لكن غضبه لم يكن لنفسه قط؛ بل كان يغضب إذا انتُهكت حرمات الله. فإذا كان الحق يخصه، كان أسرع الناس عفواً، وإذا كان الحق لله، كان كالجبل الأشم لا يزحزحه أحد. كان هو "الميزان" الذي يزن الأفعال بميزان الوحي، فما استحسنه القرآن فعله، وما استقبحه تركه، حتى صار مرآةً صقيلة تعكس أنوار السماء على الأرض.

٢. في محراب التواضع

رغم كونه "خليل الله" ومن شُق له القمر، كان يعيش حياة البسطاء بقدسية الأنبياء. كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويقول: "إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكل العبد". لم تكن لديه حاشية تمنع الناس من الوصول إليه؛ بل كان الفقير واليتيم والأرملة يأخذون بيده فينطلق معهم في حاجتهم حتى يقضيها. كان القرآن يعلمه (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، فكان خفض الجناح سجيته، واللين في القول ديدنه.

٣. الصدق المطلق (الظاهر كالباطن)

كان ﷺ يطبق آية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) بأعلى درجاتها. لم يَعِد بشيء إلا وفى به، ولم ينهَ عن خلقٍ إلا كان أبعد الناس عنه. حتى أعداؤه الذين حاربوه، لم يجدوا عليه كذبة واحدة في شأن الدنيا، فكيف بشأن الدين؟ لقد كان "القرآن الحي" الذي يراه الأعمى ببصيرته قبل أن يراه البصير بعينيه.

٤. الحياء الذي يزين الإيمان

وصفه أصحابه بأنه كان "أشد حياءً من العذراء في خدرها". فإذا كره شيئاً عُرف ذلك في وجهه دون أن يجرح أحداً بكلمة. كان حياؤه من الله يمنعه من كبائر الأمور وصغائرها، وحياؤه من الناس يجعله رقيق الحاشية، جميل المعشر، لا يواجه أحداً بما يكره0

تجاوزت رحمته حدود البشر لتشمل كل ذي كبدٍ رطب. هو الذي اهتز له "جذع النخلة" شوقاً حين تركه وخطب على المنبر، فنزل وضمه حتى سكن الأنين كأنين الصبي. وهو الذي دخل بستاناً فرأى جملاً يذرف الدمع، فمسح على ذفراه وقال لصاحبه: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟". كان ينهى عن قطع الشجر في الحرب، ويأمر بالرفق بالحيوان، ليضع أول قانونٍ عالمي لحماية البيئة والحياة، منطلقاً من مبدأ: "ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء

في المواقف التي تزيغ فيها الأبصار، كان النبي ﷺ هو الثبات المتجسد. في غزوة حنين، حين تراجع الناس تحت ضغط النبال، وقف وحده على بغلته ينادي بصوتٍ كالرعد: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب". لم تكن شجاعته بطشاً، بل كانت طمأنينةً يستمدها الصحابة منه. وفي الصبر، كان الجبل الذي لا تهزه الريح؛ فقد أبناءه وبناته واحداً تلو الآخر في حياته (إلا فاطمة)، فكان يدمع العين ويحزن القلب ولا يقول إلا ما يرضي الرب: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

كان يقابل الإساءة بالإحسان، والغلظ باللطف. جاءه أعرابي يجذب رداءه جذبةً شديدة أثرت في عنقه وهو يطالب بالمال، فما كان منه إلا أن تبسم في وجهه وأمر له بعطاء. كان يقول: "إن الله رفيق يحب الرفق". دخل عليه رجل يرتجف هيبةً منه، فقال له بفيضٍ من التواضع: "هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة". هذا الحلم هو الذي حول أعداءه الألداء إلى أحباء يفدونه بأرواحهم.

بقي وفياً للسيدة خديجة طوال حياته، حتى بعد وفاتها بسنوات طويلة. كان إذا ذبح شاةً يبحث عن صديقاتها ليهديهن منها براً بها. وعندما جاءته "هالة" أخت خديجة، ارتاح لصوتها الذي ذكره بحبيبته الراحلة. لم ينسَ فضل "حليمة السعدية" التي أرضعته، فكان يبسط لها رداءه لتجلس عليه إكراماً لها. الوفاء عند محمد ﷺ كان ديناً يُمارس، وليس مجرد ذكرى عابرة.

مدرسة الصحابة.. ثمار الغرس النبوي

لم يرحل النبي ﷺ إلا وقد ترك خلفه جيلاً من "النجوم". ترك أبا بكر بصدقه، وعمر بعدله، وعثمان بحيائه، وعلياً بشجاعته. صنع من رعاة الإبل قادةً للأمم، ومن بسطاء الناس علماء يشار إليهم بالبنان. كان يربي كل واحدٍ منهم على قدر طاقته، يكتشف مواهبهم ويوجهها، حتى أصبح كل صحابيٍّ "أمةً" في خلقه وعطائه. لم يكن الصحابة مجرد أتباعٍ لنبي، بل كانوا "مشاريع أمم" صاغها الوحي بلمسات محمدية. لم يكسر النبي ﷺ طبائعهم، بل هذبها؛ فلم يطفئ قوة عمر، ولم يجرح حياء عثمان، بل وجّه كل طاقةٍ لتصب في مجرى الحق.

1. التخصص وتوزيع العبقرية

كانت مدرسة النبي ﷺ تؤمن بـ "الفروق الفردية". لم يطلب من الجميع أن يكونوا نُسخاً مكررة، بل قال كلمته الخالدة التي وزعت المهام: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل...".

لقد جعل من كل واحدٍ منهم "مرجعاً" في بابه؛ فمن أراد القرآن ذهب لابن مسعود، ومن أراد القوة في الحق ذهب لخالد، ومن أراد الأمانة ذهب لأبي عبيدة.

2. تحويل "الأنا" إلى "نحن"

في مدرسة الصحابة، ذابت الأنانية في روح الجماعة. كان النبي ﷺ يربيهم على "الإيثار" حتى صار أحدهم يفضل أخاه على نفسه وهو في سكرات الموت (كما حدث في اليرموك حين رفض الجرحى الماء ليؤثروا به غيرهم). كان يغرس فيهم أن المؤمن للمؤمن كالبنيان، فصنع منهم جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

3. التربية بالمواقف لا بالخطب

لم تكن مدرسته فصولاً دراسية، بل كانت "مواقف حياتية". حين رأى أبا ذر يُعيّر رجلاً بأمه، لم يطرده أو يعنفه أمام الناس، بل قال له جملة هزت كيانه: "إنك امرؤ فيك جاهلية"؛ فوضع أبو ذر خده على التراب وطلب من الرجل أن يطأه اعتذاراً. وهكذا كان النبي ﷺ يصحح المسار بكلمة، أو بدمعة، أو حتى بنظرة عتاب، فتتحول النقيصة في الصحابي إلى فضيلة كبرى.

4. جيلٌ قرآنيٌّ فريد (العمل قبل الحفظ)

كانت القاعدة في مدرسة الصحابة: "لا نتجاوز عشر آيات حتى نتعلم ما فيها من العلم والعمل". لم يهتموا بكثرة الكلام، بل بعمق الأثر. لذا، حين مات النبي ﷺ، لم يترك خلفه "حفّاظاً" للكلمات فحسب، بل ترك "قرآناً يمشي بين الناس" في صورة رجالٍ ونساء. كان الصحابي يرى الوحي ينزل غضاً طرياً، فيحمله في قلبه قبل لسانِه.

5. صناعة القادة (الثقة والتمكين)

أعطى النبي ﷺ الثقة للشباب؛ فجعل "أسامة بن زيد" قائداً لجيش فيه كبار الصحابة وهو لم يتجاوز العشرين. وأرسل "مصعب بن عمير" وحيداً ليفتح المدينة بالقرآن وهو في ريعان شبابه. لقد آمن بمواهبهم، ففجّر فيهم طاقاتٍ لم يكونوا يعلمون أنها تسكنهم، حتى قال عمر بن الخطاب: "كان أصحاب رسول الله ﷺ كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم".

إن مدرسة الصحابة هي المعجزة الثانية للنبي ﷺ بعد القرآن؛ فالقرآن هو "الوحي المسطور"، والصحابة هم "الوحي المنظور". لقد استطاع هذا اليتيم ﷺ أن يصنع من رعاة الغنم قادةً للأمم، ومن عُبّاد الأوثان رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار، ليثبت للعالم أن "صناعة الإنسان" هي أعظم الفنون على الإطلاق.

أدب الحوار النبوي.. حين تتكلم الرحمة

لم يكن النبي ﷺ يفرض رأيه بسلطان النبوة، بل كان يكسب القلوب بسلطان الأدب. كان حواره نسيجاً من الإنصات الواعي، والكلمة الطيبة، والاحترام الشديد للمخالف قبل المؤالف.

1. فن الإنصات (أفرغتَ يا أبا الوليد؟)

حين جاءه "عتبة بن ربيعة" مفاوضاً عن قريش، يعرض عليه المال والملك والنساء ليترك دينه، لم يقاطعه النبي ﷺ بكلمة واحدة رغم فظاعة العرض. تركه يفرغ كل ما في جعبته، وهو ينظر إليه باهتمام، فلما صمت عتبة، قال له النبي بكل أدب: "أفرغتَ يا أبا الوليد؟". قال: نعم. قال: "فاسمع مني".

هذا الإنصات لم يكن ضعفاً، بل كان احتواءً للخصم، وإعطاءه حقه في التعبير، مما جعل عتبة يعود لقريش بوجهٍ غير الذي ذهب به.

2. الحوار بالمنطق والعاطفة (قصة الشاب والزنا)

جاءه شابٌّ مندفع يستأذنه في أرذل الخطايا قائلاً: "ائذن لي بالزنا!". ثار الصحابة وهمّوا به، لكن النبي ﷺ هدأهم وقال: "ادْنُ". لم يعظه بالنار والعذاب أولاً، بل حاوره بمنطق الفطرة والغيرة: "أتحبه لأمك؟ أتحبه لابنتك؟". والشاب يجيب بـ "لا والله يا رسول الله".

لقد خاطب فيه "الإنسان" قبل "المذنب"، ثم وضع يده على صدره ودعا له، فخرج الشاب وليس شيءٌ أبغض إليه من الزنا. لقد غسل روحه بالحوار قبل أن يطهر سلوكه بالأمر.

3. مراعاة الكرامة الإنسانية

كان ﷺ إذا أراد نصيحة أحدٍ في ملأ، لم يشهّر به، بل كان يقول: "ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا وكذا؟". كان يحفظ للناس كرامتهم وماء وجوههم. وحتى مع أعدائه، كان ينتقي أطايب الكلم؛ فحين أسروا "ثُمامة بن أثال"، لم يحبسه في زنزانة، بل ربطه في سارية المسجد ليرى أخلاق المسلمين وحوارهم، وكان يمر عليه كل يوم يسأله بلين: "ما عندك يا ثمامة؟". هذا الرقي في الحوار هو الذي جعل ثمامة يسلم طواعية حباً في هذا النبي.

4. حوار الأفعال لا الأقوال

أحياناً كان حواره صمتاً بليغاً أو ابتسامةً مشجعة. كان "يُقبل بوجهه وحديثه على أشرّ القوم يتألفه بذلك". لم يكن يتكبر على تساؤلات الأطفال، ولا على حاجة العجائز. كان يمنح محاوره "كُلّه"، فمن رآه ظن أنه أحب الناس إليه من شدة تركيزه معه وتلطفه به.

بهذا الأدب الرفيع، استطاع محمد ﷺ أن يبني أمةً من القلوب قبل أن يبني دولةً من الحدود. لقد علمنا أن "الكلمة الطيبة صدقة"، وأن الحق إذا لم يتزين بالأدب فقدَ نصف قوته.

الختام.. والوصية الباقية

في ختام رحلتنا، يقف العالم أمام سيرة هذا النبي العظيم مبهوراً. لم يترك لنا قصوراً ولا تيجانًا، بل ترك لنا "المنهاج". وصيته الأخيرة لنا لم تكن جمع الأموال، بل كانت: "الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم". رحل وبقي فينا أثره؛ فكلما ذُكر اسم "محمد"، اهتزت القلوب شوقاً، ولهجت الألسن بالصلاة والسلام عليه.

إن سيرة محمد ﷺ ليست مجرد تاريخ يُقرأ، بل هي حياةٌ تُعاش. فمن أراد السعادة، فليقتفِ أثره، ومن أراد النور، فليستضيء بسنته. لقد بدأت القصة بـ "اقرأ"، وانتهت بـ "أكملت لكم دينكم"، وما بينهما كان أعظم رحلة بناء إنسان عرفتها البشرية. لم يكن مشهد الوداع في المدينة مجرد غياب جسد، بل كان "انقطاع خبر السماء" عن الأرض. وقف الزمان مبهوتاً عند عتبة حجرة عائشة، حيث كان الصادق الأمين يلفظ أنفاسه الأخيرة، متمتماً بكلماتٍ لم تكن عن ملكٍ ضائع أو وصية بمال، بل كانت "دستوراً للروح": "الصلاة الصلاة.. وما ملكت أيمانكم".

1. الوصية الباقية: "الصلة والرحمة"

في أنفاسه الأخيرة، اختصر النبي ﷺ كل شريعته في ركنين: الصلاة (وهي حبل الوصل مع الخالق)، والعدل مع الضعفاء (وهو حبل الرحمة مع الخلق). كأنما أراد أن يقول لأمته: "لا خير في عبادةٍ لا تثمر رحمة، ولا خير في قوةٍ تظلم مسكيناً". لقد رحل ولم يورّث قصراً، بل ورّث "محراباً" يجمع القلوب، و"ميزاناً" يحمي الحقوق.

2. الدرس الأول: "بشرية النبوة وعظمة المنهج"

كان رحيله ﷺ أكبر درسٍ في التوحيد؛ فالدين ليس معلقاً بالأشخاص مهما سمت مكانتهم، بل بالمنهج الذي جاءوا به. حين صرخ الصدّيق: "من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات"، كان يعيد صياغة الوعي الإنساني؛ فالحق أبدي، والرسول بلّغ ومضى، وبقيت الأمانة في أعناقنا. لقد علمنا ﷺ أن نقدس "المبدأ" لا "الذات"، وأن نكون ربانيين لا مصلحيين.

3. الدرس الثاني: "صناعة الأثر لا البقاء"

عاش النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة، لكنه غيّر مجرى آلاف السنين القادمة. الدرس هنا أن القيمة ليست في طول العمر، بل في "عرضه" وعمق أثره. ترك وراءه أمةً كانت ترعى الغنم فصارت تقود الأمم، لا بالسيف وحده، بل بـ "النموذج" الذي زرعه فيهم. لقد علّم العالم أن الفرد الواحد، إذا تسلح بالصدق واليقين، يمكنه أن يقلب موازين التاريخ.

4. الدرس الثالث: "الوفاء حتى الرمق الأخير"

بقي النبي ﷺ وفياً لأصحابه، يودعهم فرداً فرداً، ويوصي بالأنصار خيراً، ويستغفر لأهل البقيع. علّمنا أن العظمة الحقيقية هي في "التواضع عند التمكين"، وفي "تذكر الفضل" للناس. حتى في سكرات الموت، كان يهمس بكلمات الطمأنة لمن حوله، ليرسم لنا مشهد القائد الذي يحمل همّ رعيته حتى وهو يخطو أولى خطواته نحو الآخرة.

الخاتمة الوجدانية:

رحل المصطفى ﷺ، وجفّ القلم الذي كتب بدموع المحبين قصة اليتيم الذي آوى العالم. لكنه تركنا على "المحجة البيضاء"؛ ليلها كنهارها. ترك فينا كتاباً لا يأتيه الباطل، وسنةً هي سفينة النجاة.

إن الختام الحقيقي لسيرته ليس بانتهاء الكلمات، بل ببدء "الاقتداء". فكل يدٍ تمسح على رأس يتيم هي يد محمدية، وكل لسانٍ ينطق بالحق هو صدى لصوته، وكل قلبٍ ينبض بالرحمة هو قطعة من فيضه.

"اللهم صلِّ وسلم وبارك على مَن بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وتركنا على بيضاء نقية."

تمت بحمد الله